مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثلاثون – شباط ٢٠٢٤– شعبان ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

مصادر الاحتجاج وأبعاده الزمانية والمكانية والاجتماعية
ورقة بحثية أُعدت لنيل درجة الأبحاث في مادة القضايا اللغوية

المشرف د.طه محمد العبود
الطالب أحمد حسن أحمد
جامعة الجنان/ كلية الآداب للعلوم الإنسانية/ طرابلس – لبنان

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وعلم الإنسان ما لم يعلم، وجعل الكون كتاباً مفتوحاً للمتأملين والمتفكرين، وأفضل الصلاة والسلام على النبي الأمي الذي أُوتي جوامع العلم والكَلِم، وعلى آله وصحبه مَن تَنزلت في بُيوتهم سور الذكر الحكيم، فنشروه في أنحاء البلاد حتى سادت بفضله وبفضلهم العربية ما شاء الله لها وللقرآن.

إن مسألة الاحتجاج أخذت من النحاة الأقدمين حيزاً من مؤلفاتهم وشغلت فكرهم، وقد اختلفوا في مصادره وأبعاده المكانية والزمانية والاجتماعية، وذلك لمّا أرادوا جمع اللغة وتدوينها وجدوا أنفسهم أمام تراث لغوي هائل، فنظروا ماذا يأخذون وماذا يتركون؟

يتناول هذا البحث مسألة الاحتجاج اللغوي وما يدور حوله من أخذٍ وردٍّ بين النحاة، فيعرض لمفهوم الاحتجاج (لغة واصطلاحاً)، ثم نبذة مختصرةً عن أهميته، بعد ذلك ينتقل البحث للحديث عن مصادر الاحتجاج وما دار حولها من اختلاف وشد وجذبٍ بين النحاة، أيضاً يعرض البحث إلى أبعاد الاحتجاج الثلاثة (الزمان والمكان والمجتمع)، واختلاف النحاة فيها بين متشددٍ ومتّسع، إلى أن يتوج البحثَ خاتمةٌ تلخص البحث، لينتهي بعد ذلك بقائمةٍ تحوي المصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها.

واعتمد البحث على المنهج الوصفي الاستقرائي من خلال تتبع آراء النحاة وقراءتها واستقصائها ومعرف آراء البصريين والكوفيين على وجه الخصوص.

إشكالية البحث: تكمن إشكالية البحث في ما يلي:

١- ما المصادر التي اعتمدها النحاة في الاحتجاج؟
٢- ما الأبعاد التي وضعها النحاة للاحتجاج؟

أهمية البحث: يسلط البحث الضوء على الجهد الذي قام به الأولون من أجل استنباط أقيسة العربية وقواعدها ومفرداتها، كذلك لمعرفة مستوى الفكر الذي استنط هذا العلم استشعاراً للخطر الذي بدأ يُحيق بلغتهم.

أهداف البحث: يسعى البحثُ إلى تحقيق أهدافه المنشودة وهي:

١- تحديد المصطلح (الاحتجاج)
٢- معرفة المصادر التي احتج بها النحاة
٣- أبعاد الاحتجاج الثلاثة (الزمانية والمكانية والاجتماعية).

الدراسات السابقة: ألف الأقدمون في الاحتجاج كثيراً غير أني سأشير إلى بعض الدراسات الحديثة:

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثلاثون – شباط ٢٠٢٤– شعبان ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

- الاحتجاج بالقرآن الكريم والقراءات القرآنية في المسائل النحوية في كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف، علي عبد الله الذنيبات. رسالة أُعدت لنيل درجة الماجستير في جامعة مؤتة بالأردن.
- الاحتجاج اللغوي بين النظرية والتطبيق، عاطف فضل.
- قضية الاحتجاج في اللغة، سيد مصطفى أبو طالب.

المبحث الأول

الاحتجاج مفهومه وأهميته

أولاً: مفهومه

الاحتجاج لغة: جاء في لسان العرب: البرهان، وقيل الحجة ما دوفع به الخصم، وقال الأزهري: ومن أمثال العرب لَجَّ فَحجَّ. معناه لجّ فغلب من لاجّه بحججه. يقال حاججته أحاجه حجاجاً ومحاجه حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، والحجة: "الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة"[١].

والحجة: "ما دلّ به على صحة الدعوة"[٢]، "فالاحتجاج هو إقامة الحجة"[٣].

أما اصطلاحاً: فهو "إثبات صحة قاعدة أو استعمال كلمة أو تركيب بدليل نقلي صحّ سندُه إلى عربي فصيح سليم السليقة"[٤].

ويقول السيوطي: بأنّ الاحتجاج هو "ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى، وهو القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب قبل بعثته وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظماً، ونثراً عن مسلم أو كافر فهذه الأنواع لا بُدّ فيها من الثبوت"[٥].

ويرى الدكتور محمد خير حلواني بأنّ الاحتجاج: "عبارة عن مجموعة من الأعمال تبدأ بالتأملات، وتنتهي بالكشف عن القواعد"[٦].

ويعرفه الدكتور علي أبو المكارم: بأنه "الاستدلال على صحة القواعد النحوية مطلقاً"[٧].

ويرى الدكتور تمام حسان في كتابه الأصول بأنّ الاحتجاج "استعمال أدلة النحو، وهي كلام العرب الفصيح المنقول نقلاً سليماً، الخارج إلى حد الكثرة وقياس وهو حمل ما لم ينقل على ما نقل إذا كان في معناه وكذلك كل مقيس، أو استعمال حال"[٨].

ويرى الأنباري في رسالته الإغراب في جدل الإعراب بأنّ الاستدلال "طلب الدليل كما أن الاستفهام طلب الفهم، والاستعلام طلب العلم، وقيل الاستدلال بمعنى الدليل"[٩].

ثانياً: أهمية الاحتجاج

لمّا أحتاج العرب إلى النحو، خوفا على سلامة اللغة بعد الاختلاط بالأعاجم نتيجة الفتوحات الإسلامية الواسعة، إذ تنبه علماء النحو إلى هذا الأمر سيؤدي إلى فساد اللغة وفساد الدين، ويعتبر اللحن الدافع الأول لتدوين اللغة، وجمعها واستنباط قواعد النحو وتصنيفها، فالخوف على العربية جعل هؤلاء العلماء يتظاهرون لصيانة العربية[١٠]. ومن فوائد الاحتجاج، شرح القواعد عن طريق الأمثلة التي توضح هذه القواعد، كما يعمل الاحتجاج على بناء القواعد النحوية فنصوص الاحتجاج هي محور الارتكاز في البحث النحوي فهي مصدر القواعد ومحك صحتها جميعاً.

المبحث الثاني

مصادر الاحتجاج وأبعاده

أولاً: مصادر الاحتجاج

اتفق الأولون من النحاة وأهل اللغة على بعض مصادر الاحتجاج واختلفوا في بعضها الآخر وسنورد القول في ذلك كما يلي:

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثلاثون – شباط ٢٠٢٤– شعبان ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

أ - القرآن الكريم

أجمع النحاة على حجية النص القرآني فهو أفصح ممّا نطقت به العرب وأصحّ نقلا وأبعد منه عن تحريف، وأقرّ النحاة بأنه كلام الله أُجري على كلام العباد فكُلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم، وما يعنون ومن هنا ظهرت شواهد القرآن الكريم في كتب النحو[١١].

فالقرآن الكريم والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن الكريم هو الوحي المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بياناً وإعجازاً، أما القراءات فهي اختلاف "ألفاظ الوحي المنزل المذكور كتابة أو نطقاً وضبطاً وهذا ما جعل التعدد في الأوجه الإعرابية وهو بابٌ دخل منه خلاف كبير وجدل كثير"[١٢].

ويعتبر القرآن مصدراً مهماً من مصادر السماع، فكل ما ورد أنه قُرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء أكان متواتراً أم آحاداً أم شاذاً[١٣]. أما المتواتر فهو ما قرأ به السبعة وهو ما رواه جمعٌ من القُراء يستحيل تواطؤهم على الكذب عن مثلهم عدداً ووصفاً إلى نهاية سند القراءة. أما الآحاد فهو ما روي عن بعضهم، ولم يصل حدّ المتواتر، أما الشاذ فهو ما كان عن غير السبعة أما القراءة الشاذة فهي ما لم يصح سندها، وقد أجمع القُرّاءُ على أنّ أقوى القراءات ما توافر فيه الشروط التالية: صحة السند إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموافقة الرسم العثماني، وموافقة العربية ولو بوجه من الوجوه[١٤].

ب - الحديث النبوي الشريف

يُعدُ الحديث النبوي الشريف مصدراً مهماً من مصادر النحو السماعية وفيه من الفصاحة والبيان ما يؤهله لأن يأتي بعد القرآن الكريم، وقبل كلام العرب، فهو وحي من الله إلى نبيّه والحديث النبوي كلُّ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة.

أما الحديث عند النحاة فهو "قول الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم ويهتمُّ النحويون بالقول، لأنّه موضع النحو، ومنبع استدلالهم ومرجع أحكامهم"[١٥].

ويُحتج بكلام النبي صلى الله عليه وسلم بما ثبت أنّه قاله على اللفظ المروي، أي كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وذلك نادراً جداً لأن أغلب العلماء لم يحتجوا بما نُقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بالمعنى، لإثبات القواعد النحوية[١٦].

ومن المؤكد أن النبي أفصح الناس فكلامه فصيح موحى إليه من عند الله، ومن ذلك فإنّ النحاة في الاستشهاد بحديثه ينقسمون ثلاث طرائق هي:

١- طائفة منعت الاستشهاد به، كأبي حيان وابن الضائع، ومرد ذلك إلى سببين هما: أنّ الأحاديث لم تُنقل كما سُمعت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنّما رويت بالمعنى، والسبب الآخر أنّ أئمة النحو المتقدمين من المصرَين لم يحتجوا بشيء منه[١٧].

٢- طائفة جوزت الاستشهاد بالحديث مطلقا كالرضي وابن هشام، وابن مالك الذي فاقهم في الاستشهاد بالحديث الشريف.

٣- طائفة توسطت في ذلك كالشاطبي، حيث جوز الاحتجاج بالأحاديث التي اعتنى بنقل ألفاظها.

ويرى الدكتور تمام حسان في كتابه الأصول أنه "ينبغي للنحاة أن يراعوا أن الذين تلقوا هذه الأحاديث تلقياً مباشراً عن الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا من الصحابة، وهم عربُ خُلّص من ذوي الاختصاص، والسليقة فلوا أنّ واحداً منهم خانته ذاكرته في خصوص اللفظ لأدى المعنى بألفاظ صحيحة من عنده"[١٨].

فإذا سلمنا بذلك انتقلنا إلى رواة الحديث من التابعين، وتابعي التابعين فوجدناهم أحد فريقين: إما عرباً أقحاحاً يصدُق عليهم ما صدق عن الصحابة رضوان الله عليهم، وإما من الأعاجم الذين عُرفوا بصدق حرصهم على حرفية النصوص، ثم إنهم كان لديهم من البصر بنقد الحديث سنداً ومتناً ما يدعو إلى

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثلاثون – شباط ٢٠٢٤– شعبان ١٤٤٥
ISSN–2536–0027

الاطمئنان عليهم وإليهم من حيث المحافظة على النص، ولا سيما أن الاعتماد على التدوين في ذلك العصر قد خفف الحمل عن ذواكر الحُفاظ من المحدِّثين، فهم بذلك قد ضبطوا النص بالصورة التي تلقوها عن الصحابة أو التابعين ذي السليقة[١٩].

أضف إلى ذلك كله أنّ هؤلاء الأعاجم لم يكونوا يروون الحديث في عالم غير عالم النحاة الذين بدؤوا جهودهم النحوية في ظل مجتمع فصيحن ولم نسمع أنّ الأحاديث التي رووها خالفت القواعد أكثر مما خالفها الشعر العربي المشتمل على الضرائر، أو الرخص وعلى الرغم من ذلك نرى النحاة يقيمون نحوهم على الشعر، ويتركون الأحاديث، وهي أقلُّ مخالفة لقواعدهم من الشعر، وأنّ الرواية بالمعنى كانت شائعة في كثير من الشواهد الشعرية التي اعتزَّ بها النحاة ويشهد بذلك تعدد الرواية للشاهد الشعري الواحد فلماذا تكون الرواية بالمعنى مانعاً من الاحتجاج بالنسبة للحديث من الشعر[٢٠].

ج : كلام العرب

أما العرب المحتج بهم فقد قصر العلماء احتجاجهم على قبائل وسط الجزيرة، كأسد وقيس وتميم وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ومن ينعم النظر في معاجم اللغة وكتب قواعدها يجد كتب اللغويين أوفر حظاً في الاستشهاد بالشعر والنثر على السواء في إثبات معنى أو استعمال كلمة[٢١].

لم يكن النحويون على درجة واحدة من السماع عن العرب فقد تباينوا في ذلك ما بين مستكثرٍ ينقل عن جميع العرب بدويهم وحضرهم وهم الكوفيون وبين متشدد لا ينقل إلا عن فصحاء العرب ممن سبق ذكرهم وهم البصريون لكنهم اتفقوا على أنّ الأخذ لا يكون إلا بالمشافهة، مشافهة الأعراب بالوفادة عليهم أو الرحلة إليهم ولهذا قُسِّم الشعراءُ إلى طبقات:

١- طبقة الجاهليين: كامرئ القيس وطرفة وغيرهم.
٢- طبقة المخضرمين: وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كلبيد وحسان.
٣- طبقة المتقدمين: ويقال لهم الإسلاميون: وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير والفرزدق.
٤- طبقة المولدين: ويقال لهم المحدثون كبشار بن برد وأبي نواس، فالإجماع على الاستشهاد بشعر الطبقتين الأوليين، وأما الثالثة لصحيح صحة الاستشهاد بشعرها، وأما الرابعة فالثابت أنه لا يُستَشهد بشعرها مطلقاً، وقيل يُستشهد بكلام من يوثق به منهم.

ثانياً: أبعاد الاحتجاج (المكانية- الزمانية- الاجتماعية)

أ - البعد المكاني:

للاحتجاج بعد مكاني وفق ما انتقاه النحاة في روايتهم عن القبائل العربية، فقد حدد البصريون القبائل التي ينقلون عنها ويسمعون منها فأخذوا عن القبائل الموغلة في الصحراء المتعمقة في البداوة، وأقاموا قواعدهم الأكثر والأشهر من كلامهم وأهملوا ما عداه مهما كان فصيحاً، ومن القبائل التي أخذ عنها البصريون قريش، وتميم، وأسد، فقد أخذ عنهم أكثر اللسان العربي، ثم أُخذ عنهم أكثر اللسان العربي، ثم هُذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، وعن هذه القبائل أخذ الكوفيون لكنهم نقلوا كذلك عن القبائل التي خالطت الحضر كقبائل الحجاز وثقيف ولخم وجُذام وقُضاعة وغسان وإياد وبكر وعبد القيس وأزد عمان وأهل اليمن وبني حنيفة وسكان اليمامة، ولعل أهم ما ميّز المدرسة الكوفية من المدرسة البصرية اتساعها في رواية الأشعار، وعبارات اللغة من جميع العرب، بدويهم وحضريهم[٢٢].

ب - البُعد الزماني:

إنّ قصر النحاة على عصر يسمى عصر الفصاحة يجوز السماع من نصوصه والاستشهاد بها على القواعد ولذا يسمى عصر الاستشهاد وقد وقع اختيار النحاة على فترة تبدأ بأول ما وصل إليهم من نصوص

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثلاثون – شباط ٢٠٢٤– شعبان ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

العصر الجاهلي وتنتهي بنهاية القرن الثاني الهجري، لا يفرقون في ذلك بين شعر امرئ القيس وشعر إبراهيم بن هرمة وقد لا يعتدُّون بما حدث في هذه الفترة من تطور في اللغة العربية وسجّله اللغويون ومؤرخو الأدب[٢٣].

ج - البُعد الاجتماعي:

انتقى النحاة واللغويون من المستوى اللغوي الذي اختاروا منه المسموع، فقد وقع الاختيار من قبل النحاة في هذا المجال على اللغة الأدبية دون لغة الكلام اليومي لعدة أسباب منها، انّ هذه اللغة الأدبية تبدو في شكلها المكتوب بخاصة لغة واحدة على ألسنة العرب، وإذا اختلف نطقها على ألسنة القبائل بين الكشكشة والعجعجة فهي ما زالت اقرب إلى الوحدة من اللهجات القبلية المستعملة في الحديث اليومي، أضف إلى ذلك ما يشفع لها من أنها لغة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر، والمأثور من الأمثال والأسجاع فإذا كان النحو إنما نشأ للحفاظ على القرآن الكريم، فأولى به أن يُستَخرج منه لغة القرآن الكريم لا سيما أنها لغة الدولة والدواوين وليس هناك من لهجة تستحق أن تُسمى لغة العرب جميعاً أكثر مما تستحق هذه اللهجة الأدبية[٢٤]

الخاتمة

بعد كل ما تمّ عرضُه من خلال هذا البحث رغم أنّه لم يشمل كلّ ما يحيط بموضوعه إلا أنه يمكن القول بأن للاحتجاج ثلاثة مصادر (القرآن الكريم) لم يختلف النحاة في حجيته، و(الحديث النبوي الشريف) اختلفوا فيه ثلاثة طرائق أولها: منعت الاستشهاد به، وثانيها: جوزت الاحتجاج به، وثالثها: توسطت في ذلك إذ جوزت الاحتجاج بالحديث الذي اعتُني بنقل ألفاظه. والمصدر الثالث (كلام العرب) فقد قسم الرواة والنحاة الشعراء إلى أربع طبقات ثلاث منها لا خلاف في الاستشهاد بشعرها (الجاهليين – المخضرمين – الإسلاميين المتقدمين كجرير والفرزدق)، والرابعة (طبقة المولدين) وهذه لا يُستشهدُ بشعرها.

كذلك تبين أن للاحتجاج أبعاد ثلاثة (مكاني) يتعلق بالمكان الذي سكنته القبائل التي يُحتج بكلامها واختلف البصريون والكوفيون في تحديده، والمقصود بذلك قبائل بعينها فمنها قريش، وتميم، وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين وثقيف ولحج وجذام وغيرها، وبُعدٌ (زماني) ويبدأ من الشعر الجاهلي إلى نهاية القرن الثاني وآخر شاعر يُحتجُ بشعره هو ابن هرمة، والأخير بُعدٌ (اجتماعي) يتعلق باللغة التي اعتمدوها وهي لغة الأدب دون اللغة اليومية التي يتداولها الناس في التخاطب.

المصادر

١ – الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد: **الإغراب في جدل الإعراب**، تح سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، ١٩٥٧.
٢ – السيوطي: **الاقتراح في علم أصول النحو**، تح محمد حسن الشافعي، لبنان بيروت، دار الكتب العلمية.
٣ – الشريف الجرجاني: **لسان العرب**، تح عامر أحمد حيدر، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٣، مادة حجج.

المراجع

١ – الأفغاني، سعيد: **في أصول النحو**، دمشق، دار الفكر، ط٣، ١٩٦٤.
٢ – حسان، تمام: الأصول، **الهيئة المصرية العامة للكتاب**، ١٩٨٢.
٣ – الحديثي، خديجة: **موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف**، دار الشريف للنشر، ١٩٨١. ٤ - الحلواني، محمد خير: **أصول النحو العربي**، إفريقيا الشرق، ط٢.
٥ – الشاعر، حسن موسى: **النحاة والحديث النبوي**، ط١، ١٩٨٩.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الثلاثون – شباط ٢٠٢٤– شعبان ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

٦ – مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**، القاهرة، دار الفكر، ط٣، ١٩٦٤.
٧ – أبو المكارم، علي: **أصول التفكير النحوي، منشورات الجامعة الليبية**، ١٣٩٢ه.
٨ – نحلة، محمود أحمد: **أصول النحو العربي**.

---

[١] - ابن منظور: **لسان العرب**، تح عامر أحمد حيدر، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٣، مادة حجج، ٨٢/٣.
[٢] - الشريف الجرجاني: **التعريفات**، تح مصطفى أبو يعقوب، المغرب، الدار البيضاء، مؤسسة الحسن، ط١، ١٤٢٧هـ، ص٨٢.
[٣] - مجمع اللغة العربية: **المعجم الوسيط**، القاهرة، دار الدعوة،ط٢،١٥٦.
[٤] - الأفغاني، سعيد: **في أصول النحو**، دمشق، دار الفكر، ط٣، ١٩٦٤، ص٢٦٠.
[٥] - السيوطي: **الاقتراح في علم أصول النحو**، تح محمد حسن محمد الشافعي، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ص١٤.
[٦] - الحلواني، محمد خير: **أصول النحو العربي**، إفريقيا الشرق، ط٢، ص١٥.
[٧] - أبو المكارم، علي: **أصول التفكير النحوي**، منشورات الجامعة الليبية، ١٣٩٢هـ، ص٢٤٦.
[٨] - حسان، تمام: **الأصول**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢، ص٦٥.
[٩] - الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد: **الإغراب في جدل الإعراب**، تح سعيد الأفغاني، مطبعة الجامعة السورية، ١٩٥٧، ص٤٥.
[١٠] - الأفغاني، سعيد: **في أصول النحو**، المغرب، مطبعة جامعة محمد خضير، ص٣٣.
[١١] - حسان: **الأصول**، ص٩٤،
[١٢] - نحلة، محمود احمد: **أصول النحو العربي**، ص٣٤.
[١٣] - أبو المكارم، **أصول التفكير النحوي**، ص٣٧.
[١٤] - السيوطي: **الاقتراح**، ص٢٤.
[١٥] - الشاعر، حسن موسى: **النحاة والحديث النبوي**، ط١، ١٩٨٩٠، ص٢٥.
[١٦] - السيوطي، **الاقتراح**، ص٢٩.
[١٧] - الحديثي، خديجة: **موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف**، دار الشريف للنشر، ١٩٨١، ص١٦.
[١٨] - حسان، **الأصول**، ص١٠٠.
[١٩] - **م ن**، ص١٠١.
[٢٠] - **المرجع السابق**، ص١٠١.
[٢١] - السيوطي: **الاقتراح**، ص٣٣.
[٢٢] - حسان: **الأصول**، ص٩٤.
[٢٣] - **م ن**، ص٩٥.
[٢٤] - **المرجع السابق**، ص٩٤.